أثر اللسان العربي في اللغة الإسبانية

الأستاذ سامي الحفار الكزبري (دمشق)

الاستاذ سامي الحفار الكزبري
(دمشـــق)

لا ريب في ان اثر اللسان العربي في اللغة الاسبانية من اهم آثارنا في اسبانيا واكثرها خلودا ، كما انه دليل قاطع على ان الحضارة العربية الاسلامية وجدت في الاندلس الارض الخصيبة لازدهار اغراسها . فاذا تجلت تلك الحضارة في العلوم والفنون والآداب ، في الهندسة والتجارة والزراعة والصناعة ، ومنحتنا تراثا عربيا اندلسيا افادت منه الانسانية ، فلقد كان اللسان العربي خير اداة للتعبير عن تلك الحضارة خلال تسعة قرون تقريبا . فالعرب عاشوا في الاندلس ثمانية قرون الا قليلا ابان حكمهم لها ، منذ دخول طارق بن زياد الى شبه الجزيرة الايبيرية سنة 711 م حتى خروج آخر ملوك بني الاحمر من غرناطة سنة 1492 م ؛ ولكن من الثابت ان الاثر العربي في بعض مناطقها قد استمر حتى مطلع القرن السابع عشر ؛ وذلك لان نصف مليون عربي اختاروا البقاء في اسبانيا بعد ان استرجعها ملوكها لشدة تعلقهم بها وبارضها جيلا بعد جيل . وقد عرف هؤلاء باسم موريسكوس Moriscos وظلوا يتكلمون العربية ويكتبونها حتى تم اندماج بعضهم بالاسبان نهائيا لغة ودينا ؛ في حين هاجر البعض الآخر الى الشمال الافريقي . فالموريسكوس هم العرب الذين تنصروا بعد ان استرجع ملوك الاسبان بلادهم من المسلمين العرب ، اما الذين لم يتنصروا وآثروا البقاء في الاندلس فلقد اضطروا للموافقة على التبعية للملوك الكاثوليك واطلق عليهم اسم : « المدجنون » Mudéjares وتولد عن بقائهم فن جديد في الهندسة والصناعة اليدوية سمي : المدجن Mudéjar لذا لا نستطيع ان نقول بان الاثر العربي في اسبانيا قد زال بزوال سلطانهم عليها .

وقبل ان نتحدث عن اثر الموريسكوس والمدجنين في اللغة الاسبانية في مختلف بقاع الاندلس لابد لنا من التحدث عن طبقة «المستعربين» Mozárabes وهم ابناء البلاد الذين تاثروا بالثقافة العربية والحضارة الاسلامية ابان الحكم العربي في اسبانيا . لقد حافظ هؤلاء على معتقداتهم الدينية غير انهم تعلموا العربية وتبنوها في حياتهم وكانوا يتكلمون كذلك لغة بلادهم الاصلية المشتقة من اللاتينية والتي كانت تعرف باسم الرومانسية وهي نواة اللغة الاسبانية . فالحكم العربي في الاندلس توطدت دعائمه اثر حكم الفيزقوطيين Romane ، وهي نواة اللغة الاسبانية . فالحكم العربي في الاندلس توطدت دعائمه اثر حكم الفيزقوطيين Visigodos وهم قوم من الجرمان احتلوا اسبانيا في القرن الخامس الميلادي قادمين من ايطاليا وفرنسا وتبنوا لغة الرومان الدارجة فيها وادخلوا في تلك اللغة اللاتينية الشعبية بعض تعابيرهم واسمائهم ومفرداتهم ، ولكن حصيلة ما قدموه لتغذية اللغة الاسبانية لا تقارن بما قدمه العرب اليها من

لسانهم الفني اذ انها لا تتجاوز مئة كلمة في حين ان ما دخل اليها من العربية تجاوز اربعة آلاف كلمة .

ويقول العالم الاستاذ رافائيل لابيسRafael Lapeso في كتابه « تاريخ اللغة الاسبانيه » ان العامل العربي في تكوينها كبير الاهمية ويأتي مباشرة بعد العامل اللاتيني . ونحن نرى فيها اليوم عددا كبيرا من المفردات التي تبتدىء بال التعريف . وهذا ما يرشدنا في احيان كثيرة الى اصلها العربي غير ان قليلا منها بقي على حاله الاصلي كتابة ولفظا مع انه حافظ على معناه الاصيل لما اصاب تلك المفردات العربية الاصل . سواء منها المبتدئة بال التعريف او غيرها. من تحريف لدى دخولها الى اللغة الاسبانية. والسبب في ذلك التحريف منطقي وواضح لما يوجد من فوارق شاسعة بين حروف العربية وحروف اللاتينية وبين جرس الاولى وجرس الثانية واسلوب لفظها ؛ وبين ذوق الاذن الاسبانية وذوق الاذن العربية ؛ فلكل قوم في لغاتهم ما الفوا وما توارثوا لذا اختلفت وسائل التعبير واللهجات واللغات . ولذا كان لابد للاسبان من سكب المفردات العربية ، واسماء الاعلام واسماء المواقع الجغرافية والمدن التي اطلق عليها العرب اسماء عربية في قالب سماعي يتناسب مع ذوقهم من جهة ومع امكانات لغتهم الاصلية واحرف هجائهم من جهة ثانية . فنحن نجد ان كلمة « الساقية » قد اصبحت بالاسبانية (: اثيكيا : Acequia ، والقاضي Alcalde والمعصرة Almazaras والضيعة Aldea وذلك لعدم وجود كل من القاف والعين بالابجدية اللاتينية، ويلاحظ هنا فيما اوردت من امثلة ، في كلمتي الساقية والضيعة ان حرف الالف المفتوحة قد اصبح (الفا مائلة) اي انه قد لحقت به الامالة ، فالامالة شاعت كثيرا فيما انتقل من العربية الى الاسبانية والبرتغالية وهي ظاهرة في طائفة كبيرة من الكلمات والاسماء . ثم نجد ان كلمة «حتى» اصبحت Hasta ، وكلمة الوزير Alguacil وقلعة ايوب Calatayud ومدينة سالم Medinaceli ووادي الحجارة Guadalajarra ووادي الكبير Guadalquivir الخ .. ومما يلاحظ كذلك ان الاسماء العربية والمفردات المسكنة في آخرها لم تتفق والذوق الاسباني فتحرك آخرها لدى اقتباسها باحرف صوتية مثل (آ) او (او) او (اي) a, o, i بحيث اصبح السوق : Zoco وفلان : Fulano ومولد Muladi ، ومعناها المسلم الاسباني . غير العربي . وقد عرف الاسبان الذين اسلموا ابان الحكم العربي باسم (Muladies) وباطل : Baladi و Balde والزيت : Zeite والجبر Algebra ومسجد : Mezquita ومسكين : Mezquino الخ ... والامثلة اكثر من ان تحصى . وكذلك حرف الاسبان اسماء المدن والقرى والقلاع التي شيدها العرب في بلادهم . في شبه الجزيرة الايبيرية . كما اصاب التحريف اسماء بعض الانهر والمواقع الجغرافية التي اطلق عليها اسلافنا اسماء عربية ومثالا لذلك نرى ان مدينة مجريط تحولت الى « مدريد » ومدينة سالم صارت Medinaceli ومرسية : Murcia و«بني سالم» في جزيرة ميورقة (مايوركا) Benisalem واليابسة : Ibiza وهو اسم احدى جزر الباليار ومدينتها الرئيسية . وقلعة النور : Calatañazor . وقلعة اعرج : Calatarage ونهر وادي العين: Guadalén ووادي الرملة Guadarrama ، وغيرها كثير . وهذا ما يجعلنا نتوقف عند المرور بمثل هذه المفردات الاسماء العربية الاصل مستغربين ما لحق بها من تحريف .

ثم ان ما نقوله عن التحريف الذي لحق باغلبية المفردات والاسماء العربية لدى اندماجها باللغة الاسبانية قد اصاب كذلك الاسماء الاسبانية اللاتينية لدى نقلها الى العربية ، واعني بها اسماء الاعلام واسماء المدن والمقاطعات والمواقع الجغرافية المختلفة في شبه جزيرة ايبيريا وفي جزائرها الشرقية . فقد تعارف اسلافنا على تسمية بعضها بما يتفق وذوقهم السماعي واللغوي فاطلقوا اسم طليطلة على مدينة Toledo واسم ملقة على Malaga واسم طركونة على مقاطعة Tarragona واسم قطلونية على مقاطعة Cataluña

والاهم من هذا انهم تحروا في احيان اخرى اصل اسماء المدن القديمة اللاتيني (الافريقي الروماني) وشكلوا اسماءها العربية استنادا الى هذا الاصل ، فمدينة سرقطة Saragoza مثلا قد سميت كذلك عند العرب لانها كانت معروفة في القديم باسم Coisarangusta ، ومدينة استجة (اليخا اليوم Ecija) كانت في الاصل Astigi ، وشاطبه Jativa كانت تدعى Sactabis ، اما

اشبيلية Sevilla فان اسمها العربي مشتق من اسمها اللاتيني Hispalia ، وقرطبة Cordoba من قرطب Corteb اسم القرية الرومانية القديمة التي توسعت بعد الفتح العربي واصبحت عاصمة ملك الامويين . فالامثلة في هذا الصدد كثيرة تلقي الضوء على حقائق تاريخية هامة .

ولعل جانب الاشتقاق اللغوي الذي جرى عليه الاسبان لدى تبني المفردات العربية من اهم جوانب هذا البحث ، فكما جرى العرب على اقتباس جزء من اسماء المدن القديمة حين تسمية مجريط مثلا حيث انهم شيدوها واعطوها اسما مركبا من كلمة « مجرى » لوفرة مجاري المياه فيها ومن المقطع اللاتيني (ايت IT) فاصبحت مجريط ، نجد ان الاسبان درجوا على تركيب مفردات جديدة في لغتهم اذ كثيرا ما اتخذت الكلمات اللاتينية معنى عربيا بعد ان اجروا عليها تعديلات مقتبسة من التركيب العربي . لقد الف الاسبان هذه المؤثرات في حقبة تعايشهم الطويلة مع العرب فشاعت على السنتهم وما زالت جزءا لا يتجزأ من قاموس لغتهم . ونحن نعلم ان العرب تعارفوا على تسمية الغني : ابن الدنيا ، واللص : ابن الليل لان الظلام يساعد على السرقة فالف الاسبان هذه التعابير الرمزية واصبحوا يسمون اليتيم : ابن الحجر، والمتدين: ابن الاحسان، والسطحي : ابن يومه الخ .. ثم درجت في اللغة الاسبانية كلمة هيدالكو Hidalgo المركبة من Hijodalgo اي : ابن الخير ، واصبحت تطلق على النبلاء الذين يتميزون بالخدمات القومية والشجاعة والكرم، وقد اشار الى تفسيرها الملك الفونسو العاشر الملقب بالعالم وقال انها من المفردات الاسبانية المركبة على غرار بعض الكلمات العربية . والفونسو العاشر (العالم) هو الذي حكم طليطلة بعد خروج المسلمين منها بحوالي مائة وسبعين عاما واشتهر بتكريم ائمة الفكر المسلمين والمسيحيين اي المدجنين والموريسكوس وقد قربهم من بلاطه واستفاد من علمهم وثقافتهم لترجمة مؤلفات ابن رشد وابن سينا وابن باجة من العربية الى الاسبانية . وقد شاع في مقاطعات ليون وقشتالة والاندلس اطلاق اسماء على الاشخاص او الاسر انطلاقا من التقليد العربي ، لذا كنا نجد افرادا من الاسبان باسم Abolmondar اي « ابو المنذر » و Abohamor اي « ابو حمود » و Almodáfar اي المظفر و Maimón اي ميمون ، كما كانوا يكنون بعض اسرهم حتى القرن الحادي عشر باسمين مركبين اولهما عربي (ابن او بن او بني) والثاني لاتيني اسباني على غرار كنى بعض الاسر العربية ، فعرفت بينهم اسر مكناة ببني غوميث Benigómez وبينافيدس Benavides وغيرها .

وهنالك في اللغة الاسبانية طائفة من الكلمات التي تبناها الاسبان وحافظوا على معناها العربي واصابها بعض التحريف ومنها : « العيب » Aleve و « حسنة » Hazaña ، كما نجد انهم صرفوا افعالا اسبانية انطلاقا من الكلمة الاسبانية (اللاتينية اصلا) على غرار ما كان العرب يفعلون ، وهذا الاثر واضح في كلمتي صبح ومساء اللتين تولد عنهما فعلان هما : اصبح وامسى ، اذ اننا نجدهما في فعلي : Amanecer و Anochecer

واخيرا لابد من القول بان اثر لساننا العربي كان كبيرا في اسلوب التعبير الاسباني بل حتى في اسلوب التفكير ذاته اذ ان الاسبانية تبنت عبارات عربية وجملا برمتها ونقلتها وترجمتها حرفيا والفتها كقولهم : « ان شاء الله » (Ojalá) واعانك الله : (Dios le ampare) والله يحفظك (Que Dios guarde) وبارك الله بالام التي حملتك (Bendita sea la madre que te parió) الى آخر ما هنالك من سلسلة التعابير التي لا يعرفها في اوروبا غير الاسبان ، والتي تنم عن عقلية خاصة عربية اندلسية اسبانية من اسبابها الايمان القوي وصفاء السريرة الانسانية والفة التمني والتبريك في الحديث .

واليوم ونحن نستعرض ذلك التاريخ المشترك الطويل ونتحرى عوامل الاثر العربي في اسبانيا وفي لغة الاسبان لا يسعنا الا ان نقف موقف المعجب بما نقل العرب الى الارض الاسبانية من علوم وفنون وتقاليد ، وبابنائها الاصليين الذين رحبوا بما حمله الفاتحون اليهم من الوان متعددة لتلك العلوم والفنون والتقاليد ، فكانوا خير تراجمة لها في اوروبا الغربية في القرون الوسيطة . كما يجدر بنا ان نعترف بفضل « المستعربين » : Mozárabes الذين تاثروا بالتمدن الاسلامي واللغة العربية والتقاليد اذ انهم استعربوا باختيارهم فكرا وقلبا ، وحافظوا على لغتهم وحضارتهم وتقاليدهم قرنا اثر قرن وغاروا عليها ودافعوا عنها ، واسهموا بذلك في نقلها الى قومهم ولغتهم وتراثهم الادبي والفني اولا ثم الى العالم الغربي .